الحورية

(حكاية باريسية)

في القلعة التي اشترتها "ليسبيا" مؤخرا، تلك الممثلة الطموحة والمجنونة التي شغلت العالم بتصرفاتها الغريبة، كنا ستة من الأصدقاء نجلس إلى المائدة، فيما كانت "اسباسيا" تجلس على رأس المائدة، كانت كطفلة محبة للحلوى، تمضي وقتها في امتصاص قطعة من الحلوى السكرية الطازجة، البيضاء، بين أطراف أصابعها المحمرة. كانت ساعة تناول الشاي، الأحجار الكريمة تنعكس على زجاج المائدة كحلم مجهض، فيما أضواء الشمعدانات تضيع في الكؤوس نصف المملوءة، التي تبقى فيها القليل من السائل الضارب إلى الاحمرار، والقليل من الشمبانيا الذهبية، والسائل التركوازي لشراب النعناع.

كانت تتحدث باندفاع فنان موهوب، بعد غداء طيب. كنا جميعا فنانين، من بيننا من هو أفضل من الآخر، وكان بيننا حكيم ممتلئ يحمل على قمة استدارة كرشه العذري ربطة عنق ضخمة.

قال أحدهم: "آه، نعم، إنها "فرميت"". ومن "فرميت" انتقلنا إلى

حيواناتها، وأزميلها المحترف، وكلبين من البرونز، بالقرب منـــا، أحدهما يبحث عن الفريسة والآخر كما لو كان يتطلع إلى الصياد، يرفع رقبته ويحرك ذيله النحيل المستقيم القوي. مَنْ تحدث عـــن المتلصص؟ إنه الحكيم، الذي تلا بالإغريقية قصيدة: "أيها الصياد خذ صيدك بعيداً عن قطيع أبقارك، وإلا فإنك ستكون، كمن يتنفس كالبقرة المتلصصة، كما لو تريد أن تأخذها معك".

كانت "ليسبيا" قد انتهت للتو من امتصاص سكرها، وقالـــت بقهقهة أرجنتينية:

-باه، هذه المسوخ أحب إليّ، كنتُ أريـــدُ أن أمـــنح الحيـــاة لتماثيلي البرونزية، ولو كان هذا ممكناً، فإن عشيقي سيكون أحد هؤلاء العوّائين أنصاف الآلهة. أنبهكم إلى إننـــي أعشـــق هـــذه الحيوانات أكثر من المسوخ، ومستعدة لترك نفسي بين يدي أحـــد هذه الوحوش القوية، فقط لأستمع إلى شكوى المخدوعين، وهـــم يعزفون على ناياتهم المليئة بالأحزان.

قاطعها الحكيم:

-المسوخ والآلهة، والوحوش وعرائس البحر، وُجِدوا فـــي الدنيا، تماماً كالسلمندرات وطائر الفينيق.

ضحكنا جميعاً، ولكن ما بين قهقهات المجموعة، كان صوت الجميلة "ليسبيا" مسموعاً بوجهها المشتعل كـــامرأة جميلـــة تبـــدو مشتعلة باللذة.

واصل الحكيم:

-نعم، بأي حق نُنكر نحن المحدثون واقعاً أكده القدامى؟ الكلب العظيم الذي شاهده الإسكندر، بارتفاع قامة إنسان، إنه حقيقة، تماماً كعنكبوت "كاركن" الذي يعيش في أعماق البحار. والقديس "انطونيو الناسك"، البالغ التسعين من العمر، ذهب بحثاً عن العجوز "بابلو" الناسك في الجبال، الذي يعيش في كهف. "ليسبيا"، لا تضحكي، فقد كان القديس يبحث عن العاقر، معتمداً على عكازه، دون أن يعرف أين سيعثر على مَنْ يبحث عنه. وبعد كثير من السير، هل تعرفون من دله على الطريق الذي كان عليه أن يسلكه؟ مسخ. "نصف إنسان نصف حصان"، كما يقول المؤلف، كان يتكلم مثل ممسوس، هرب بسرعة كبيرة حتى فقده القديس من أمام عينيه، وكان المسخ يتقافز، شعره في السماء وبطنه على الأرض. في تلك الرحلة نفسها، شاهد القديس "انطونيو" مسخاً، "إنسان له هيئة غريبة، كان بالقرب من جدول، أنفه معقوف، وجبهته خشنة ومجعدة، وأسفل بطنه يعتمد على حوافر ماعز".

قالت "ليسبيا":

-تماماً، فقد كان "كوكورو" عضو المعهد المستقبلي.

واصل الحكيم:

-يؤكد القديس "خيرونيمو" إنه في زمن "قسطنطين الساحر" قاد إلى الإسكندرية مسخاً حياً، واحتفظوا بجسده بعد موته، إضافة إلى هذا، شاهده الإمبراطور "انتوكيا".

كانت "ليسبيا" قد ملأت كأسها بالنعناع من جديد، وبللت لسانها في الشراب الأخضر، تماماً كما يفعل حيوان من فصيلة القطط.

-يقول "البيرتو ماجينو" إنهم في زمنه عثروا على اثنين من المسوخ في جبال الساكسون. ويؤكد "انريكو ثورمانو" إنه في بلاد التتار كان هناك رجال بساق واحدة، وبذراع واحدة في الصدر. وشاهد "فينثينو" في زمنه وحشاً جاءوا به إلى ملك فرنسا، كانت له رأس كلب (تضحك ليسبيا)، وعضلاته وذراعاه ويداه كانت عارية من الشعر مثلنا (تهتز ليسبيا كطفل يدغدغونه)، كان يأكل لحماً مطبوخاً، ويشرب النبيذ بشراهة.

صرخت ليسبيا:

-"كولومبين"!

وجاء "كولومبين"، إنه كلب يبدو كما لو كان مكعباً من القطن. أخذته سيدته بين يديها، وما بين انفجار ضحكات الآخرين:

-خذ، إنه المسخ الذي كان على شاكلته!

وقبلته في فمه، فيما كان الحيوان ينفخ أنفه كما لو كان مفعماً بالشهوانية.

أنهي الحكيم حديثه برقة:

-و"فيليجون تاليانو" يؤكد وجود نوعين من المسوخ، أحدها كالفيل.

قالت "ليسبيا" وقد أنهت كأس النعناع:

-كفى علماً، أنا كنت سعيدة، ولم أفتح شفتي بعد.

صرخت:

-أوه، بالنسبة لي هي الحوريات، فإنني متشوقة لرؤية تلك العاريات في الغابات والينابيع، لكن الحوريات أكذوبة!

انتهى هذا اللقاء السعيد بانطلاق ضحكة كبيرة.

قالت لي "ليسبيا"، وهي تلسعني بعينيها وصوتها الهامس حتى أسمعه أنا وحدي:

-وماذا بعد، الحوريات حقيقة واقعية، وستراهن أنت!

كان اليوم ربيعياً. كنتُ أتصعلكُ في حدائق القلعة، وتبدو عليّ هيئة حالم قاسي. والطيور تصرخ على زهور الليلك المتفتحة، وتهاجم جعارين تدافع عن نفسها بدروعها اللازوردية، ومنقايرها المذهبة المدرعة. وبين الزهور القانية، والأقحوانية، تنطلق دوائر من العطر الجميل، تنتشر أقوى من القرنفلات، في

جماعات كبيرة، بألوانها الوديعة العذرية. بعد ذلك، الأشجار العالية، والأفرع المتهدلة المليئة بالزنابير، والتماثيل تحت الظلال، وتمثيل رماة الأقراص البرونزية، والمصارعون ذوي العضلات في تشكيلاتهم الهندسية المرعبة، والساحات الفوّاحة المغطاة بأبوابها المتداخلة، والجذوع المستنسخة الجميلة، والأعمدة المنحوتة الشهوانية البيضاء. كنتُ أتصعلكُ بين شراك تلك الروائع عندما سمعت ضجة، هناك في ظلال الأشجار المتشابكة، في البحيرة حيث توجد الأوزات البيضاء التي تبدو كمنحوتات من الرخام، وأخريات نصف أعناقها بلون الأبنوس، كساق شفقية بجورب أسود.

اقتربتُ أكثر، هل كنتُ أحلم؟ "نوما" لقد شعرت مثلك، عندما شاهدت "ايخيريا" لأول مرة في سجنها.

كانت في منتصف البحيرة، بين الضجة والأوزات الفزعة، جذعها كان على السطح الرغوي يبدو ذهبيا أحياناً بفعل انعكاس الضوء الشارد القادم من بين انفراجات الأوراق. آه، أنا شاهدت الليلك، والأزهار، والجليد والذهب، رأيتُ مثالاً في تشكل حياتي، وسمعتُ، ما بين زخات المياه التي تطلقها الحورية الجريحة، صوت ضحكة ساخرة ومتناغمة أشعلت دمي.

وفجأة هربت الرؤية، لقد ظهرت حورية البحيرة، تشبه "آلة

موسيقية" في تموجاتها، تجمع خصلات شعرها، التي تتساقط منها قطرات لامعة، هرولتُ بين أشجار الورد، واختبأتُ خلف الليالك والقرنفلات، وراء الأشجار المتشابكة، حتى اختفت. آي، في منعطف بين الأشجار بقيتُ أنا الشاعر الغنائي، متحسراً، والطيور محيطة بي كما لو كانت تسخر مني، تمد إليّ أعناقها الطويلة بمناقيرها اللامعة.

بعد ذلك، كنتُ أتناول طعام الغداء مع رفاق الليلة الماضية، كان يجلس بين الجميع، مغترا بكرشه وربطة عنقه الضخمة، المعلم الثخين، عضو المعهد المستقبلي.

وفجأة، وبينما كان الجميع يتحدث عن آخر أعمال "فيرميت" في الصالون، هتفت "ليسبيا" بصوتها الباريسي السعيد:

-أنتَ، كما يقول "تارتارين"، إن الشاعر شاهد الحوريات...

تأملها الجميع في ذهول، فيما كانت هي تنظر إليّ، تنظر إليّ بعيني قطة، وتضحك كطفلة يدغدغونها.